صورة الجزائري في الأدب الفرنسي الكولونيالي

Algerian's image in the French literature colonial

علي بريغيث [1*]

[1] جامعة عمار ثليجي، الأغواط (الجزائر).

تاريخ الاستلام : 02 أكتوبر 2020 ؛ **تاريخ المراجعة** : 15 نوفمبر 2020 ؛ **تاريخ القبول** : 23 جانفي 2020

ملخص:

يسعى هذا البحث إلى الكشف عن صورة الجزائري في الأدب الكولونيالي الفرنسي بالجزائر؛ واجتنابا للوقوع في الشمولية وتكرار ما ورد في دراسات سابقة، فإنّه تمّ اختيار ثلاثة أدباء فرنسيين على سبيل التمثيل لا الحصر. اثنان منهم ولدا في فرنسا وزارا الجزائر أثناء المد الاستعماري، الأول منهما أوجين دوما مستشرق وكاتب وواحد من رجال العسكرية، والثاني منهما أوجين فرومنتان رسّام وكاتب رومانسي، أمّا الكاتب الثالث فهو ألبير كامو أديب فرنسي بارع ظهر مع نهاية الاستعمار الفرنسي للجزائر، وقد ولد في الجزائر ونشأ في أحضانها، غير أنّه غادرها دون رجعة نظرا لتعصبه لوطنه الأم(فرنسا)؛ وكلّهم كتبوا عن الجزائر بوصفها تيمات وصور أدبية منحتهم الشهرة والجوائز، إلا أن الحقيقة الظاهرة في إبداعاتهم المكتوب والمنطوق تؤكد أن الشعب الجزائري كان غائبا بل مغيبا أفرادا وجماعات في كتابتهم فهو موضوع ولكنه غير مخاطب بأي خطاب فكان الحديث عنه وليس له.

الكلمات المفتاحية: صورة الجزائري؛ كتابات غربية؛ أوجين دوما؛ أوجين فرومنتان؛ ألبير كامو.

Abstract:

This research seeks to reveal the image of the Algerian in French colonial; avoiding the occurrence of totalitarianism and the repetition of previous studies, three French writers were selected as examples. The first two writers as well. Eugène Daumas an orientalist and one of the military men, the second of them Eugène Fromentin a painter and romantic writer, were born in France and visited Algeria at the beginning of colonialism, where as the third writer Albert Camus was born and raised in Algeria but left it irreversibly because of his intolerance towards his motherland. All the three writers took Algeria as the subject matter of their literary writings. However, it is evident that the Algerian people was considered as a topic but not an audience they were absent in these writers literature as they were not addressed by any speech.

Keywords: the image of the Algerian, Western writings, Eugène Daumas , Eugène Fromentin, Albert camus.

---

[*]Corresponding author: e-mail: Brighithdj@mail.com.

تمهيد :

لقد فرض الأنموذج الحضاري الغربي نفسه على العالم بأسره، مما دفعه إلى ركوب البحر واستعراض قوته، فبسط بذلك نفوذه على السواحل والمضايق والجزر، ثمّ غزا اليابسة واستعبد الناس بدعوى الفتح والتنوير، غاضا نظره عن ممارساته الإقصائية للآخر، فسبب ذلك تجاذبات وصراعات جسيمة لا تزال آثارها شاهدة إلى حدّ اليوم.

والفرنسيون بحكم أنهم من رواد هذه الحضارة، فقد احتل المشرق مكانة مرموقة في أعمالهم الأدبية والفنية, وصبغوا صوره مما ترسّخ في أذهانهم من أفكار خاطئة وأحكام منمطة لا تمت إلى الواقع بصلة, متداولة تاريخيا وسياسيا ودينيا وثقافيا وحتى نفسيا، مما أملته الكنيسة التي لا ترى في الشرق إلا آفة أو عدوا ينبغي أن يحارب ويكره، باستثناء عدد قليل من المنصفين أمثال فولتير (1694-1774) (voltaire) الذي كان موضوعيا معترفا بحد الحجة بمدى تسامح الشرق ومرونته تجاه الأمم الأخرى ؛ وهو بعمله المسرحي والقصصي الذي أشاد فيه بالآخر (المشرق) بعيدا عن التعصب الكنيسي يراه رمزا ونموذجا بنّاء, وعلى أنّه "فرضية موجبة مخالفة للأنا والذات الغربية لكنها تتميز بالكمال والحرية والتسامح ينبغي الاقتداء بها حتى وإن كانت أجنبية عدوة غربية" (عيسى بريهمات، 1984، ص.279). وهذه النظرة الإيجابية المتطورة التي عرفتها مؤلفاته جاءت لترضي نزعته التنويرية وليصحّح بها أوضاع بلده فرنسا المترديّة اجتماعيا وسياسيا ودينيا إذا ما حاولت الاستفادة من مآثر الشرق وقيمه الحضارية الراقية ومبادئ دينه الإسلاميّ السّمحة.

وفي ظل انتشار نزعة الهروب إلى الشرق الطافح بالغرائبية، كتب الكثير من الفرنسيين عن الجزائر خصوصا إبّان الاحتلال، وما ألّفوه من كتب على شكل رحلات أو بصورة رسائل ومذكرات، تحدثوا فيها عن تجاربهم الشخصية في الجزائر وعلاقتهم بأهلها، وعبروا عن مواقفهم من قضاياها الدينية والاجتماعية والسياسية والثقافية والخلقية ؛ كما تطرقوا إلى وصف العادات والتقاليد وأساليب الحياة للأفراد والجماعات في المدن والقرى والأرياف وحتى في الفلاة الموحشة.

لقد أخذ الجزائري –إبان الاحتلال- مكانة الصدارة في أعمال الكتاب الفرنسيين باختلاف ثقافتهم وأهدافهم، ولعل من يقتفي صورة الجزائري في أدبهم ويجزئ ملامحها يجدها تجمع بين فضائين خارجي يمثله واقع المنظور إليه (الآخر) وداخلي هو المتخيل الذي يمثله الناظر (الأنا)، والأكيد أن واقعيتها في رسم صورة الجزائري وتقويمها مرهونة بمدى تغالب روح الموضوعية عندهم مع شعورهم الذاتي؛ وهنا يبرز طرح الاشكالية التالية:

- ما صورة الجزائري لدى الكاتب الفرنسي ؟ وهل هي نتاج أحكام موضوعية أم هي محصلة ثقافة استعمارية وحالة فكرية انفصامية لدى الكاتب الفرنسي نفسه ؟

إن الرحلة من وسائط هذه الصورة، وهي نوع من الحركة ومخالطة الأقوام، وقد جاء بقلم أحد الكتّاب الفرنسيين في القرن الثامن عشر القول: "بأن الرحلات تشكل أكثر المدارس تثقيفا للإنسان" (حسين محمد فهيم، 1989، ص.17)؛ وتجدر الإشارة إلى أن عددا كبيرا من الرحالة الأوروبيين قد أسهموا إسهاما إيجابيا في تعريف الشعوب غير الأوروبية لم تكن متوفرة من قبل, "وأيٌّ كانت دوافع الرحلة المعلنة منها والخفية فقد اتصفت أغلب الرحلات بدقة الملاحظة والوصف والتقصي والتسجيل... هذه كلها سمات قد أصبحت الآن بمثابة قواعد أساسية من منهجية البحث الحقلي في الدراسات الاثنوغرافية (Ethnographie) بالمعنى الحديث" (حسين محمد فهيم، 1989، ص.12).

ولما كانت إيديولوجية الاستعمار تهدف إلى التفكيك ثم إعادة البناء والاستتباع تحت سطوة السلاح والمعرفة، هبّ الغرب إلى تكريس الاستعمار على أنه الوسيلة المثلى لإنقاذ البشرية من مستنقع الجهل والمرض والفقر والخوف، وذلك بإرسال علماء الجغرافيا والمستشرقين والمترجمين وعلماء الأجناس والرحالة والمبشرين، وذلك قصد دراسة أصول التركيبة الاجتماعية لسكان البلاد المحتلة. وفي هذا السياق يصرح "رينيه موني" صاحب مشروع: "علم الاجتماع الجزائري" (La sociologie des Indigènes) بالقول: "...لنتعرّف على حياة الشعوب الجزائرية،... لأنه من حقنا ومن واجبنا نحن الفرنسيين أن نعرف ونفهم جميع الشعوب التي نحميها وندير شؤونها ولا نتوقف أبدا عن القيام بالواجب نحوها... باعتبار أن العلم مصدر للنفوذ وللحكم" (الطاهر لبيب، 2008، ص.483).

وعلى هذا الأساس كان للسياسة الفرنسية في الجزائر منذ الاحتلال سنة (1830) ثلاثة أهداف، وهي:

- صنع الجزائر الفرنسية بكل ما يعنيه ذلك من أبعاد .
- طمس التاريخ والشخصية الجزائرية وإزالتهما من الاعتبار.
- قهر أيّ نوع من أنواع المقاومة التي يمكن أن تزعج أمن فرنسا في الجزائر. بالإضافة إلى زرع بذور الخلاف والتناحر بين مكونات المجتمع الجزائري من عرب وأمازيغ، واستخدام كل الأساليب والوسائل للوصول إلى ذلك الهدف، لذا "انطلق الفرنسيون في كتابتهم تاريخ الجزائر من عدة معطيات أهمها: كونهم تغلبوا على الجزائريين بالقوة، وكونهم شعبا متحضرا حكموا شعبا متخلفا، وكونهم مسيحيين قبضوا على زمام شعب مسلم... ولعل تلك المعطيات هي التي مازالت تتحكم في الكتابات الفرنسية عن الجزائر حتى اليوم" (أبو القاسم وسعد الله، 1990، ص.17).

لقد زار الجزائر كتّاب فرنسيون كثيرون يصعب حصرهم، حيث نجد من الكتاب المتقدمين ألفونس دودي، فلوبير، وغي دو موباسان وأوجين فرومنتان، ومونترلان، وتوماس أوربان، والبان روزي، والدكتور فيتال، وماسكري، وأليكسس دي توكفيل... (أبو القاسم سعد الله، ج8، 1989، ص.252) وقد عرف هؤلاء بأدباء العبور الذين كانوا انطباعيين ومغامرين وكان أكثرهم ليبراليين في مواقفهم؛ وبعد مرور مائة عام من الاستعمار، ظهر جيل اعتبر الجزائر قطعة من فرنسا وسكنا بملكية خاصة، منهم من ولد بها ومنهم من وفد عليها صغيرا مع بداية الاستيطان وهؤلاء عرفوا بالكتاب المتجزأرين، جيل جديد عرف باسم "مدرسة الجزائر"، وكانت انشغالاتهم في الكتابة فلسفية وبسيكولوجية وإنسانية أكثر منها سياسية، ومن هؤلاء ألبير كامو وبيليفري وإيمانويل روبلس، وجيل روا (أبو القاسم سعد الله، ج8، 1989، ص.254). بالإضافة إلى روبير آرنو (1873-1950)، المارشال روندون، ولويس برترون وميزات، والذين عرفوا بعنصريتهم تجاه الجزائريين، وإن أبدوا بعض تعاطفهم مع الأهالي آملين تحقيق وحدة اندماجية بينهم وبين المستعمرين...؛ وفي هذا الصدد تقول الكاتبة سعاد محمد خضر: "لقد تعرض الجميع للمشاكل الجزائرية ولكن من علٍ... وكانت الجزائر بالنسبة لهم الولاية ذات الطبيعة الجميلة والشمس المشرقة، حيث يمكن لهم أن يقضوا أوقات راحتهم، أو إجازات أعراسهم على شاطئ البحر بين أقربائهم ومعارفهم من الأوروبيين..." (سعاد محمد خضر، 1967، ص.91) فهم لم يتعرضوا لأساليب الإذلال والإهانة والطغيان والمعاملة السيئة التي عرفها الشعب الجزائري فردود فعلهم تجاه الأوضاع القائمة في الجزائر كانت متباينة واتصالهم مع الشعب كان سطحيا يتم بطريقة غير مباشرة وهذا ما أكده الدكتور أحمد منّور بقوله أيضا: "والواقع أن كتاباتهم كانت ذات طابع (إشفاقي) تحاول أن تكشف الفقر والمعاناة التي يعيشها الأهالي وفي ذات الوقت تكشف جمال هذا الفقر من موقف بورجوازي رومانتي سياحي متفرج" (أحمد منّور، 2007، ص.140).

ظهر بعده جيل من الأحرار كتبوا مؤلفات تظهر مدى تفهمهم للقضية الجزائرية، مبرزين بشاعة الاضطهاد والتعذيب الذي يلاقيه المساجين من جهة، وما اقترفته فرنسا المحتلة من مآسي باغتصاب الأراضي والتمييز بين العنصر الأوروبي والعنصر الجزائري المسلم واحتقار هذا الأخير من جهة أخرى، "ووقف هؤلاء مواقف معتدلة منصفة مساندة للثورة رافضة للاندماج القسري أو الإلحاق، مؤكدة حق الجزائريين في تقرير مصيرهم، وقيام دولة الجزائر الحرة المستقلة، ومن هؤلاء فرانسوا مورياك وجان جاك سوفان شرايير صاحب "ملازم في الجزائر"، وجون بول سارتر (Paul Sartre Jean)، وجون سيناك صاحب "مسودة الجزائر" وهنري كريا (قريع) صاحب "الثورة والشعر" و"فرانز فانون"..." (حفناوي بعلي، 2004، ص.220) وغيرهم من الكتاب الفرنسيين المتأخرين زمن نهاية الاحتلال الفرنسي للجزائر.

ملامح الجزائري الخرافي عند الكاتب أوجين دوما :

لقد لونت صورة الجزائري في الأدب الفرنسي عبر مراحل الاحتلال بألوان مختلفة يصعب حصرها نتيجة لتباين رؤى الأدباء الفرنسيين واختلاف ثقافتهم وأهدافهم. ومن أوائل الكتّاب الذين كان لهم اتصال بالجزائر، في أول الأمر هم العسكريون الذين عملوا كمترجمين ثم كدارسين للمجتمع الجزائري من ناحية الاثنوغرافيا، حيث حفظوا جزءا كبيرا من ذاكرة الجزائر من خلال كتاباتهم الوصفية عنها، ومن بين المؤلفين المعروفين أوجين دوما (Daumas Eugène) الذي وصل إلى الجزائر سنة (1835) وعاش حرب احتلالها من خلال مناصبه في الإدارة وفي ميادين القتال، ليسجل اسمه برفقة الدوق دومال (Duc d'Aumale) في حملته ضد بجاية سنة (1847) وضد أولاد نايل (1849).

ويذهب الباحث (عبد القادر جغلول) كاتب مقدمة كتاب أوجين دوما "آداب وعادات الجزائر" (1853 Mœurs et Coutumes de L'Algérie) في الصفحة الثامنة إلى التحليل باستعماله تعبيرين هما علاقة الانجذاب (rapport de séduction) والتغليط (induire en erreur) اللذين انطبع بهما دوما، فمن جهة يبدي إعجابه بالدين الإسلامي لكنه لم يسلم ولم يرد أن يعيش المغامرة على طريقة إسماعيل أوربان (Ismail Urbain) وبيير دارجون (Pierre Dargent) وكلود مارنيي (Claud Marnier) وايميل مارتينو (Émile Martineau) ولويس موريس (Louis Morris) وأيضا الرائد روز (Rose) والجنرال دو نوفو (de Neveu) الذين تزوّجوا بجزائريات بالرغم من الصعوبات والمضايقات التي تعرضوا لها بسبب كونهن من مجتمع مسلم ؛ وكان دوما يذكر مكانة المرأة في المجتمع الأوروبي بمكانة المرأة المسلمة في المجتمع الجزائري حيث يقول: "من الخطأ الاعتقاد بأن الإسلام يضع المرأة في مكانة إذلال إلى درجة أنها تجد خلاصها في المسيحية، فبالعكس المرأة المسلمة تملك الكلمة التي تقود إلى المعارك كملكات في الدورات التي تسمى أيام الحب والمحاربين التي كانت تقام في العصور الوسطى". (Eugène Daumas, 2012, P.12).

ويظهر جليا أن دوما يضع نفسه تارة في خانة المحتل الذي يبطش ولا يرى في الأهالي إلا العيوب التي جاء من أجلها وجيشه لتصحيحها، وتارة في خانة الدارس الأنثروبولوجي الذي يدرس الفرد في المجتمع والمجتمع من خلال الفرد كما ظل يكتب في مجلتين مرموقتين وهما La revue des deux monde و La revue de Paris اللتان كانتا تصدران في تلك الحقبة والموجّهتان أساسا إلى الطبقة المثقفة التي تقرأ الكثير من كتاباته، وتكوّن من خلال نظرة دوما إلى الجزائر نظرة إمّا إيجابية عندما يوجهها الكاتب إلى المسار الإيجابي أو نظرة سلبية وهي الغالبة الأعم من ذلك يقول دوما: "... بينما الشعر عندنا هو عطاء إلى عدد قليل منا وميزة لبعض العقول لدينا، فالشعر عند العربي موجود في كل مكان ومناسبة، حيث نجده عند راعي القطيع كما نجده لدى سيد الخيمة الكبيرة وشيخ القبيلة على حد سوا" (Eugène

Daumas, 2012, P.14)؛ وفي هذا الصدد يقول الباحث عبد القادر جغلول في مقدمته لكتاب دوما "أن الشعر في المجتمع الجزائري له وظيفة اجتماعية وثقافية وإدماجية" (Eugène Daumas, 2012, P.14)؛ وفي مجال آخر يقول دوما عن منطقة القبائل: "لابد أن نعتبر أن كل رجل بالضرورة عسكري في الخدمة منذ أن يبلغ خمس عشرة سنة إلى سن الستين، ومن الخطأ أن نقدر سكان القبائل من خلال عدد البنادق.." (Eugène Daumas, 2012, P.15). فالشعب الجزائري في نظر فرنسا كله جيش وجب مقاومته بالقوة وقمعه بشتى الأساليب.

وعندما يتكلم دوما عن طبقة النبلاء العرب يقول: "أحسن وسيلة لإخضاعهم والتقليل من شأنهم هي جعلهم يخدمون نوايانا وذلك بإعطائهم امتيازات آنية حسب احتياجاتنا" (Eugène Daumas, 2012, P.15)، وقد وفق دوما في إنجاح فكرته التي جعلته على اتصال وثيق بالرؤساء العرب وبعائلاتهم الكبيرة حيث تعلّم لغتهم في ظرف وجيز مما مكنه من تعميق معرفته بالهياكل المؤسسة للمجتمع الجزائري, قائلا أنه: "...بفضل المعلومات التي أمدوني بها استطعت أن أنشر بشكل متتال: "الصحراء الجزائرية" و"الصحراء الكبرى" و"منطقة القبائل الكبرى" وهي كتب أدت بعض الخدمات لفرنسا، لأنها ألقت الأضواء على مسائل عسكرية، وتجارية هامة (سليمان قطاية، 1988، ص.272).

وعن منطقة القبائل راجع دوما صفحة تاريخها من غزوات الوندال والرومان والأتراك معرّجا على الفتح الإسلامي بقيادة عقبة بن نافع وموسى بن نصير ومصرحا بقوله: "سكان منطقة القبائل خيروا بين المواجهة والوقوع في المجزرة أو أن يختاروا طواعية الدخول في الدين الإسلامي" (Eugène Daumas, 2012, P.117) مضيفا إلى أن القبائلي ذو شهامة لم يرض بدفع الضرائب إلى الأتراك وأن كل قبائلي يخالف هذا العرف فإنه يلقى معاملة سيئة من ذويه يلبسونه لباس امرأة بالي ويعلقون في رقبته أحشاء حيوان ويجوبون به بين المارة ليذيقوه عار فعلته، "... فالقبائلي صاحب أنفة ومبدأ لا يحيد عنه أبدا" (Eugène Daumas, 2012, P.120)، "وهو بخلاف العربي ذلك العنصر الكسول الكاذب ...الذي يختار السهول للعيش مع أغنامه, ليس له حرفة, يفضّل العيش في الخيام, لا يهتم بغرس الأشجار, ولا يعتني بسلاحه, يخادع في الحروب ؛ زوجته لا تخرج إلى السوق ولا تأكل معه ولا مع ضيوفه ولا تعتني بنفسها..." (Eugène Daumas, 2012, P.132). في حين أن القبائلي لا يجرؤ على الخروج عن مبادئ القبيلة التي تؤدي دورا مركزيا في تنظيم شؤون الناس من زواج وطلاق وبيع وشراء وما إلى ذلك وتسليط العقوبة على المخالف لأوامرها أوقات السلم والحرب كما أن للمرابط مكانته المرموقة في المجتمع القبائلي وأن كلمته تسري وسط عروش القبائل خدمة له ولزاويته وأن هنالك فئة منهم يسمون الزواوة "لا يمكنهم البقاء خارج سيطرة قواتنا وعليه فإن هذا الجبلي المقدام لابد من إخضاعه إجباريا تحت نير سلاحنا" (Eugène Daumas, 2012, P.158).

وفي الفصل التاسع عشر من كتابه يتكلم الكاتب عن أسباب القتال التي تنشب بين القبائل العربية والتي عادة ما تكون بسبب الانتقام لسرقة أو إغارة أو عداوة ونحو ذلك " فيجتمع مشايخ القبيلة والمرابطين لإعداد العدة للحرب فيكون الرجال على الخيل والنّساء على ظهور الجمال لأجل حث رجالهن على القتال أو التجمع لإصلاح ذات البين بأن تقدم القبيلة المعتدية هدايا للقبيلة المعتدى عليها, وإن كان هنالك أسرى فالعربي لا يعذبهم ولا يقتلهم بل يكرمهم وفي أحيان كثيرة يطلقون سراحهم" (Eugène Daumas, 2012, P.209).

ومن صور التّوارق كما يصفهم الكاتب أن لهم قامة طويلة، أقوياء، لباسهم عباءة كعباءة زواوة وسراويلهم تشبه سراويل الأوروبيين مشدود بحبل كحزام تحت الجبة السوداء المعروفة باسم "صاي"، يضع الترقي فوق رأسه قبعة عارية يلفها بقطعة قماش كالعمامة تدور حول الرأس وتغطي الوجه ماعدا العينين وتلك عادة معروفة عند العامة

والنبلاء وكلهم يمشي حافي الرجلين من كثرة ترحالهم على ظهور الإبل وقد يلبس الترقي نعاليه المربوطة على قدمه بخيوط، سلاحهم رمح طويل وسيف عريض وخنجر مغمد في جلد ودرع كبير مقوى بالمسامير، أما فيما يخص البنادق فلا يملكها إلا القادة والأغنياء، أكلهم حليب وتمر ولحم أغنام وجمال وقليل من القمح، لهم أغنام تخلو ظهورها من الصوف ولغتهم الترقية ذات صلة بالزناتية، ونساؤهم جميلات ذوات بشرة بيضاء كبياض الأوروبيات عاريات الوجه لهن عيون زرق والتعامل معهن سهل، يلبسن سراويل الصاي السوداء مع قميص فضفاض، الأغنياء منهن يتزين بالجواهر، "ودينهم الإسلام إلا أن صلاتهم قليلة وصيامهم منعدم، ولا يتوضؤون كما هو مطلوب، لا يذبحون الحيوان بل يقطعون رأسه، وفي أيام الأعياد الدينية لا يصلون كبقية المسلمين بل يستمتعون بحركات تشبه حركات المعارك القتالية فهم مسلمون بالاسم لا بالفعل، يحتقرون القرآن ويخيفون العرب، فهم بمثابة الأعداء لهم" (Eugène Daumas, 2012, P.239)، بإمكان التوارق استضافة الغرباء والشعور بالأمان لديهم لكن بمجرد الخروج من عندهم فإنهم يفتكون بهم ويسلبون أغراضهم؛ هم لا يعرفون تعدد الزوجات ولا يختلطون بالقبائل المجاورة لهم خاصة العرب، لهم طقوسهم الخاصة بالجنازة والزواج، وعلى الجملة كما يقول الكاتب دوما فإن "التوارق لهم طباع جيدة لا كما يعتقده العرب" (Eugène Daumas, 2012, P.240).

ولولا كتب العسكري الجنرال أوجين دوما (Eugène Daumas) الذي أمد الكاتب فرومنتان (1820-1876) بمعلومات قيّمة حول الصحراء الجزائرية الكبرى وخاصة كتابه "الصحراء الجزائرية" (1845) (Le Sahara Algérien)، لما اختزل هذه المعرفة بها تكثيفا وتفصيلا إبان تواجده في الأغواط والتي مكث بها مدة ثلاثة أشهر تقريبا دون سابق له مع هذه البيئة الصحراوية القاسية.

صورة الجزائري بين التصوير والكلمة عند الرّسام والكاتب أوجين فرمنتان :

يبدو جليا باعتراف الكثير من الدارسين الفرنسيين أن فضل أوجين فرومنتان (Eugène Fromentin) فيما استوحاه من موضوع الجزائر، قد وردت آثاره في العديد من إبداعات بعض معاصريه ومن تليه من بعده مثل أندري جيد وإيميل ماسكري وإتيان ديني وغيرهم.

لقد تحدث فرومنتان في كتابه "صيف في الصحراء" (1857) (Un Eté dans le Sahara) عن الصحراء "بلد الشمس الأبدية" (Eugène Fromentin, 1981, P.73) على أنها آيات خالصة من الكتاب المقدس، وتحدث عن سلوك ومظهر أهل الأغواط بمختلف فئاتهم من بدو وحضر وحتى من جاورهم من سكان الصحراء مبديا انطباعات ذاتية في أغلبها تحكم عليهم بالدونية، وأن الناس يميلون إلى الكسل بسبب مناخ البيئة، إلى جانب تردّي أخلاق النساء، وكثرة الترف والمجون وانتشار الفقر والمرض والجهل والخوف التي تهدد حياتهم.

وقد قدّم في كتابه "سنة في السهل" (1859) (Une année dans le Sahel) للوعي الفرنسي الدليل بأن الأغواطيين لم يستطيعوا إنقاذ أنفسهم من السقوط إلا بفضل تدخل أجنبي... "هذه الأرض هي ملك لنا، لقد دفعنا ثمنها غاليا" (Eugène Fromentin, 1859, P.42)، "...الأغواط أصبح في أيدينا (1852)، مركز حدودي صلب، وقد حُفظ بإحكام، وأن البلد أصبح سالما، صالحا للسكن بعد أن أُخذ رغما عن العرب، نحن نعلم فعلا صونه حتى من سخط المناخ" (Eugène Fromentin, 1859, P.235).

وعلى خط سير الكاتب يلاحظ أنه مر بموطن "أولاد نائل" أين بدا متناقضا في تعبيره عنهم "أما عن مضيفنا... إنني أشعر بسعادة عظيمة كوني مررت بالجلفة وبالبرج (المكان الذي يقيم فيه الخليفة سي الشريف بلحرش)، الشعب متنوع ومختلف أكثر مما نعتقد أراه اليوم من الجانب الحضري أكثر تقدما وبالتأكيد الأكثر لمعانا، له هذه الميزة حيث أنه الأقل ملاحظا...، الخليفة سي شريف شخص عظيم وبدين وتقريبا دون لحية، ذو وجه هادئ وعيناه جاحظتان يرتدي حائكا دون برنوس على طريقة المرابطين (وفي موضع آخر من كتابه: "لا تفارقه الابتسامة يبدو كالطفل المبتسم...، يلبس برنوسين أحدهما أسود والثاني أبيض؛ البرنوس الأسود لا نراه إلا نادرا عند قبائل الساحل (littoral) ولا يرى تماما في الصحراء ويبدو أنه خاص بمنطقة الوسط" (Eugène Fromentin, 1981, P.78)، يتصدر الطاولة...، هذه الطاولة مُعدّة على الطريقة الأوروبية وحولها يُتكلّم بالفرنسية... هذا ما شاهدته عندما وصلت إلى الجلفة حاضرة أولاد نايل كنت في قلب هذه القبيلة العظيمة والتجارية والغنية والفاسدة (Corrompue) حيث صدى اسمها في جميع طرقات الصحراء" (Eugène Fromentin, 1981, P.60).

والحقيقة التي يثبتها حمدان بن عثمان خوجة في كتابه المرآة، أن "...هؤلاء السكان هم ربما من أكرم القبائل...، وفيما يتعلق بوصف خيامهم (فهي مصنوعة من الوبر) وهو قماش مضلّع بالأحمر أو بالألوان الأخرى وتأخذ هذه الخيام شكلها المكور والمثبت بواسطة الأوتاد... ويرى السكان الرّحل أن من الضرورة الملحة أن يكتسب المرء حصانا وبندقية وسيفا، والذي لا يملك هذه الأشياء يكون محتقرا ومنبوذا، لأنه كما يقولون: "لا يقدم أي ضمان سواء للقيام بواجباته أو الدفاع عن المجموعة. ويوجد بين هؤلاء السكان فرسان ممتازون يتسمون بكثير من الشجاعة والمهارة عندما يركب الواحد منهم لا يتردد في محاربة عشرين أو ثلاثين شخصا وله القدرة على رد هجوماتهم وهم معروفون ببسالتهم وبعزة النفس وجعل أبنائهم على هذه الأخلاق فلا يرضون بفعل أدنى دنيئة ولا أعتقد أن هناك من يستطيع إنكار هذه الحقيقة" (حمدان بن عثمان خوجة، 2006، ص.31).

ولا يعترف الكاتب للعربي إلا بحسن ضيافته للغرباء وقاموس الحكمة الذي يتداولونه في عاداتهم وعباداتهم وخوفهم من المرابطين والدراويش وسلوكاتهم، "عند وسط الوجبة ظهر شخص جديد عرفته لتوه لبشاعته وشكل شخصه الغريب،...ابتسم سي الشريف ولم يستدر إلا أنه توقف عن الأكل... رأى دهشتي قائلا لي بصدق ووقار: (درويش)، مخبول يعني رجل صالح، فلم أسأل أكثر، لأنني أعرف تقديس المجانين في بلاد العرب، لقد كتمت غضبي إزاء هذا التصرف المشين حتى نهاية الوجبة ؛... أُعطي له التبغ إلا أنه لم يتوقف عن الطلب باسطا يده السوداء مرددا كلمة التبغ التبغ بصوت خشن كأنه نباح كلب، أُبعد بدون عنف وتمت تهدأته بإشارة صمت من سي الشريف الذي كان دوما هادئا صارما... شعرت بغيرة عندما أحسست بأنهم أسمى منا حتى في وسط شعوذاتهم".

(Eugène Fromentin, 1981, P.74).

وهذا ما جعل فرومنتان يحكم على العربي بأنه يعيش ماضيه الحزين والمشرق في حاضره العقيم، وهنا يظهر عجزه في انسداد أفق المستقبل لديه "ولذلك فلا مجال إلى صنع التاريخ لأن التاريخ يفترض الإيمان بالمستقبل وقدرة الإنسان على صنعه" (عبد الصمد زايد، 1988، ص.14). وهنا مكمن الفرق بين الشرق الأسطوري والغرب الذي لا يؤمن إلا بالزمن التاريخي، متطلع دوما إلى تأملات، يراوده حلم تحقيقها في آجال مستقبلية محددة. وفي نظرةِ مُوَازَنَةٍ، رأى الكاتب أن العيش عند الأوروبيين يعني التغيير باستمرار، بينما عند العرب يعني لهم التواجد والتحمل، وهذا ما عده أحد الأسباب الرئيسية التي تمنعهم من الاندماج .

واللافت للانتباه أنه وصف العرب بأنهم جيران متفردون، كونهم "يتصرفون وفقا لأهوائهم، يفعلون كل ما قام به آباؤهم، يتملكون الأرض... ويتركون الحقول بورا، إنهم يحتقرون حتى التراب الذي انتزع منهم عنوة ويهربون من الأرض التي لم يصونوها، ما يمتلكونه يخفونه ويكنزونه, والذين لا شيء عندهم يختبئون في بؤسهم وجميع الحقوق التي فقدوها" (Eugène Fromentin, 1859, P.24)، ليحكم عليهم بأنهم أناس أشقياء مبعدون يضمرون الكراهية للغرب عامة وللفرنسيين خاصة، في عدلهم ودياناتهم وتجارتهم وصناعاتهم وقوتهم وعبقريتهم ؛ مبديا حنقه منهم لعدم تجاوبهم مع هذا الرقي لصغر عقولهم مثل أطفال، بما يفسره الكاتب بقوله: "القوة لا تعجبهم أبدا... هذا الذي يكرهونه، إنه جيرتنا وهذا يعني أنفسنا، إنهم يجنبوننا ...قدر الإمكان بنفس تصرف النسيان" (Eugène Fromentin, 1859, P.25).

وتجدر الإشارة إلى أن فرومنتان قد أحكم سيطرته على الفضاء الزماني والمكاني اللذين لهما صلة كبيرة بالإنسان الجزائري، ومن خلالهما استطاع معرفة الحياة الاجتماعية للجزائريين لما لهم من تجاوب مع الطبيعة والمناخ المحيط بهم وتكيفهم معهما أوقات الشدة والرخاء.

وفي الكتّاب، لاحظ الكاتب فرومنتان المعلم أنه قد شاخ وانقطع عنه الأطفال كبار السن، بينما المتمدرسون فقد صففوا في وضعيات مختلفة، منهم من يجلس أرضا، ومنهم من يتكئ على الحائط، وآخرون يجلسون على مقاعد كرفوف "مستودع لأجل الضجيج والمرح من ساكنيه وكأنه قفص دواجن. المعلم دائما في وسط القسم يدير، يثقف، يحرس، يضع من ثلاث إلى خمس سنوات من التدريس وذلك بتعلم ثلاثة أشياء: القرآن، قليل من الكتابة ومن الآداب، العينين تتبع أي الكتاب، اليد موضوعة على عصا طويلة مرنة مثل السوط التي تمكنه دون مغادرة مكانه من المحافظة على النظام من الزوايا الأربع للقسم" (Eugène Fromentin, 1859, P.53).

وقد كان القرآن الكريم والحديث الشريف المنبع الذي يستفيد منه الجزائريون كل ألوان تفكيرهم وأنماط حياتهم. "وحقيقة أن الجميع تقريبا كانوا يعرفون القراءة والكتابة وتكاد الجزائر تخلو عندئذ من الأمية... وكان حفظ القرآن الكريم ومعرفة اللغة العربية نوعا من التعبد وجزءا من التعمق في الدين وليس وسيلة لفهم الحياة وخوضها والصراع الفكري مع الأمم الأخرى" (أبو القاسم سعد الله، ج3، 1989، ص.20).

وعن المقبرة المهملة وسط نمو كثيف للأعشاب المختلفة مما جعلها مرعى لصنوف الحيوان والحشرات والطير ؛ أكد الكاتب أنها عند العرب فضاء للتواعد والمتعة خاصة لدى النساء المتزوجات، واللواتي يجدن في زيارتها فرصة للخروج والالتقاء والتجمع في حلق قصد إظهار مفاتنهن هروبا من صرامة البيوت المغلقة "من يدري ما يقلنَهُ من نميمة، من حكايات الحي، من ثرثرة من أسرار منزلية ومغامرات غرامية من خدع صغيرة ؟ أكثر حرية هنا مما لهن في الحمّام، إنه ليس لهن من كاتمين وشاهدين إلا أناس بالغي الحكم الذين هم ينامون تحت أرجلهن... (والذين) لا يهدأ لهم بال إلا حينما ينزل عليهم الليل من جديد" (Eugène Fromentin, 1859, P.87).

ويلاحظ أن موضوع المرأة عند الكاتب قد أخذ حيزا كبيرا من كتابه (سنة في السهل)، وهذا عكس ما صرّح به بيير جوردا (Pierre Jordan) (1898-1969): وهو يحلل موضوعاته: "...وإنْ تأمل فرومنتان جمال نساء الطوائف في المقصورات وهن في فراء الحرير بلونه الغامق فإنه يبقى كتوما حول المرأة العربية ولو لم يذكر غادته حواء فلن تجد للمرأة ذكر في كتابه" (بيير جوردا، 2000، ص.77)، فهو قد تحدث عن النساء حيث عبّر عن انطباعات لهن جلّها خارجية، تجلت في جمال القد والعيون واللباس والحلي ؛ ممن أتيح لهن الخروج من البيت، كاليهوديات والزنجيات ؛ في حين أن النساء العربيات لا يخرجن إلا نادرا ومتحجبات وكأنهن محبوسات الحائك والبيت، "ويرى البعض أن من

الخصائص المميزة للمجتمع الجزائري منزلة المرأة فهي سيدة البيت، لكنها محجوبة عن الشوارع ومحرومة من التعلم والشغل" (أندي ينيان، 1984، ص.213) ومثل هذا التفسير مرده إلى عدم فهمهم بالتقاليد الاجتماعية والتعاليم الإسلامية، "والمرأة في نظرهم قدرية غارقة في الخرافات وهي ضحية التخلف والأمية، وهي لعبة الرجل الذي كان يشتريها بنقوده، كما يشتري البهائم والبضائع... إنها آلة نسل وخادمة بيت وحاضنة أطفال وجالبة حطب وماء" (أبو القاسم سعد الله، ج6، 1989، ص.337). وهو المنطق نفسه حينما عبر غوستينو بنجامين (Benjamin Gastineau) (1823-1904) عن المرأة ووضعها في المجتمع الجزائري فبالرغم من الدور الإيجابي الذي تمارسه المرأة داخل المنظومة الاجتماعية فإن حقوقها مهضومة وإن حاولت المطالبة بها أو التوجه إلى العدالة لأخذها لم ولن تظفر بها حيث يؤكد هذه الوضعية بقوله: "عبثا تحاول بعض النساء القويات الشكوى أمام القاضي من سوء معاملة أزواجهن، فنادرا ما ينصف القاضي تظلمهن، وهكذا فالأحسن لهن أن تعانين صامتات، خاضعات لقسوة الزوج، إلى أن يخلصهن الموت، ويتحولن إلى حوريات من حوريات جنة محمّد" (Benjamin Gastineau, 1859, P.24).

ويضيف أن "الجزائر لها الصحراء، الواحات، البحر، الجبال، لها سماء رائعة على الدوام، أرض خصبة، وغابات... ومنابع باردة وحارة، وخيول تحسدها عليها كل أوروبا، ومحاجر من معادن نفيسة... لها كل هذه الفضاءات وهذه الثروات كل هذا الجمال، ولكن ليس لها المرأة" (Benjamin Gastineau, 1859, P.05) إشارة إلى أنها غائبة ومهمشة وأن الجزائر محكمة بسلطة الرجل وسطوته وأنه لا مقام للمرأة فيها.

وقد استعمل الكاتب على لسانه، عددا من الكلمات العربية الفصيحة والدارجة في العامية الجزائرية، تناولت بعضا من مظاهر الحياة اليومية للإنسان الجزائري، حيث دوّن بعض الأمثال الشعبية المرتبطة بواقع الإنسان الجزائري الذي صوّره من ذلك قوله: "هنالك حكمة عربية التي تقول: متى المرأة رأت الضيف، فهي لم تعد تريد زوجها" (Eugène Fromentin, 1859, P.35)، في إشارة إلى هشاشة العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة غير المؤسسة في نظره على الانسجام والتفاهم، وأنه متى أعرضت الزوجة عن زوجها ولم ترده حنّت إلى غيره ؛ ولعل هذه النظرة غريبة عن واقع مجتمع مسلم، وإنما هي نظرة ورثها الكاتب في خلده من مشاهد الانحلال الخلقي في أوروبا وما عليه المرأة الفرنسية بالخصوص من تحرر واختلاط مع الرجال ؛ ومن الأمثال أيضا التي نالت إعجابه، قوله: "رأس دون حيلة يقطينة أفضل منه" (Eugène Fromentin, 1859, P.65) لما تحمله من معنى معبّر عن مستوى ثقافي نسبي عند من تقدمت بهم السن... ؛ وإذا كان هذا القاموس يعبّر للكاتب عن الثقافة التي اكتسبها في رحلته ومدى معايشته وتغلغله في الوسط الجزائري، "فإنه من جهة أخرى يعد مظهرا رومانسيا حرص الكتّاب قبله إلى إبرازه في كتاباتهم، باعتبار الألفاظ التي يدخلها ضمن ما يسطره قلمه هي وسيلة أيضا لإبراز تفوقه وإبهار القارئ الفرنسي وإدخاله في جهة الاغتراب L'exotisme"(عيسى عطاشي، 2006، ص.111) ومنه فقد اكتفى فرومنتان بتصوير المظاهر الهيّئية والسلوكية من جوانب فنية بحتة حتى الأطمار البالية استرعت اهتمامه وولّدت لديه فرصة نادرة للقيام بدراسة نظرية لجمالها الأخّاذ، ولم يكن ذلك إلا كتابة داعمة للاستعمار وأجهزته العاملة على احتقار الإنسان الجزائري الشرقي، فيكون الكاتب والرسام فرومنتان قد أعطى صورة خاطئة عن الجزائري ؛ بل إن كتاباته العنصرية الصرفة تتغنى بفضائل الرجل الأوروبي من خلال فضاء الجزائر.

الإصرار على تجاهل الإنسان الجزائري وتبجيل الذات في كتابات ألبير كامو :

لم يخل التاريخ على امتداد الاحتلال الفرنسي للجزائر من الأقلام الأدبية الفرنسية البارزة على تباين انتماءاتها بين متعصب ومتعاطف ومحايد اتجاه الجزائر وشعبها لتقع التوأمة بين ما كان رائجا من أدب غرائبي مع بداية الاستعمار وأدب كولونيالي حادث أثناءه وفي أواخره تلك العلاقة التي لا يمكن تجاهلها، إذ أن الأول مع اكتمال نضجه غذى الثاني وحضره ولقحه ومهد المجال أمامه ليتطور شيئا فشيئا في ظل استتباب الاستعمار، مع العلم أن ما كتبه المستوطنون الفرنسيون عن الجزائر والذي عرف فيما بعد بالأدب الاستعماري يعد "فرعا من الأدب القومي للمستعمر لا أدبا قوميا أجنبيا قائما بذاته"(أحمد منور، 2007، ص.137)، ومن بين أولئك الكتاب الفرنسيين اللامعين أواخر الاستعمار والذين لهم باع في الأدب الاستعماري ألبير كامو ورفيقه جان سيناك.

إن لألبير كامو (Albert Camus) (1913-1960) ملامح مختلفة كثيرة عن مواطنيه وكتاباته مميزة فهو كاتب فرنسي وعلى صلة كبيرة بوطنه الأم، إلا أن تعلقه بالجزائر التي ولد بها (ببلدة ذرعان من مدينة عنابة)، من عائلة فقيرة ونشأ في أحضانها ما كان ليخسرها، فهي تمثل جزءا منه، ولشعوره كباقي الفرنسيين الذين كتبوا عنها بالفرنسية لسان هويتهم وعنوان تواجدهم والتي أحيت في نفوسهم التفكير والبحث في كل شيء، من ذلك أسطورة الجزائر الرومانية والتي عملت أيديولوجية الاستعمار على تنشيطها جيلا بعد جيل منذ الأيام الأولى للاحتلال وقيضت لأجلها الأقلام في مختلف العلوم والآداب والمعارف، "فقد كان المستعمرون يعتبرون أنفسهم ورثة للإمبراطورية الرومانية وأنهم بهذه الصفة إنما يستعيدون ما فقدوه من أرزاق وممتلكات"(أحمد منّور، 2007، ص.137).

لقد سخر كامو جلّ مؤلفاته لتمجيد جمال الجزائر وسحر طبيعتها، ودأب على تصوير الأوساط الأوروبية من مدينة الجزائر منظمة ونظيفة وخالية من الأهالي، وهنا يلاحظ غياب الإنسان الجزائري في رواياته. ولعل ذلك ينبع من الجانب الخفي والصوت اللاوعي في أعماق الكاتب وانتمائه.

إن بحوث كامو الأولى التي كتبها في الجزائر تؤكد نموه الروحي والعقلي في شمال إفريقيا وهذا ما أكده بالقول: "إن لي مع شمال إفريقيا رباطا لا ينفصم أبدا" (حفناوي بعلي، 2002، ص.114)؛ والقارئ لقصة "الضيف" (L'Hôte) من مجموعته القصصية "المنفى والمملكة" (1957) (L'exil et le royaume) يهتدي بعد روافدها التاريخية والسياسية والجغرافية والحضارية والثقافية... إلى ملامح شخصية القاص نفسه من خلال توفيقه بين عناصر القصة ووظائفها الرمزية الخاصة بالمستعمِر والمستعمَر، والتي تجلت في نزعة الكاتب الإنسانية، "فقد عاش كامو حياة قاسية وتنكر لكل فعل يؤدي إلى عذاب الإنسان وسعى جاهدا إلى أن يوقظ في النفوس معنى العدالة والأمانة والشرف ويقف في صف الأخلاقيين الفرنسيين الكبار"(Olivier Todd, 1996, P.125)، ومن جهة أخرى نجده ينظر للجنس الجزائري نظرة عنصرية، حيث يصور الكاتب وهو يحاول أن يفسر سلوكيات السجين -في قصة الضيف- الذي لا يذكره في متن القصة إلا باسم جنسه في المفرد [العربي] والذي أحدث تغييرا جذريا على فضاء المعلم "وهو موثوق الأيدي مطأطأ الرأس، يمشي وراء الدركي الذي يمسك بحبل وثاقه". "أنّه منحط بطبيعة جنسه ومتخلف" ويلصق بالجزائري عيوب التخلف والتوحش والهمجية والانحطاط والحيوانية (Albert Camus, 1957, PP.63-64).

هذا فيما يخص العربي السجين كفرد -الشخصية الوحيدة في القصة التي تم وصفها وصفا دقيقا- أما عندما يتكلم الكاتب عن الجماعة العربية المتواجدة في الهضاب العليا فالأمر أشد وقعا إنهم شعب بربري يعاني كثيرا من النوازع

المنحطة ليس بفعل بربريته فحسب لكن بسبب قسوة المناخ الطبيعي الذي يعيش فيه: "هضبة جرداء لا تنمو فيها إلا الحجارة وقد أحرقتها الشمس بأشعتها وأتى الجفاف فيها على كل شيء" إنهم شعب بدائي قاصر في ذهنيته وثقافته، "فهم كسالى لا يعملون شيئا"، ويثورون لأتفه الأسباب. وهم كالوحوش "إذا ثاروا لن يتركوا أحدا". "وقرية السجين مضطربة منذ أخذه الدرك وقد خبأه أهله شهرا بعد أن قتل ابن عمه"(Albert Camus, 1957, PP.62-65)

فالصورة التي قدمها كامو في قصته "الضيف" أخضعها إلى تشويه كبير إذ لم تحمل أية علامة تسامح أو موضوعية إزاء هذا الآخر. وعليه فإن هذه الصورة التي رسمها الكاتب للجزائري، لا تكاد تخرج عن الرؤية الاستعمارية التي سعت إلى احتلال الجزائر وتمكين الاستيطان فيها؛ والكاتب واحد من هؤلاء المستوطنين الذين دافع عنهم ودعاهم إلى التشبث بالجزائر وعدم التفريط في أرضها الموعودة ؛ بل يشجع في كتاباته إدارة الاحتلال إلى تمكين تجذرهم بكل الوسائل المتاحة فلا تعايش ولا تسامح إلا الأنا في الأنا الفرنسية تقديسا وإكبارا والنظر إلى الآخر الجزائري انتقاصا واستصغارا.

وعلى العكس من كامو الذي طالب غداة قيام الثورة الجزائرية التحريرية إلى إنشاء حكم فدرالي في الجزائر يكون تابعا للسيادة الفرنسية، اختار جان سيناك (Jean Sénac) (1926-1973) الوقوف إلى جانب الثورة والدعوة إلى الاستقلال التام للشعب الجزائري واستعادته للسيادة الكاملة على أرضه ؛ قائلا: "...(علينا) أن نقبل الحقيقة بصدق, والحقيقة هي أن هذا البلد عربي أمازيغي ومسلم... والحقيقة هي أن على مليون أوروبي على هذه الأرض المستقلة أن يتخلوا عن امتيازاتهم ليشاركوا بنسبة $^1/_9$ في بناء نظام قائم على المساواة..." (حميد ناصر خوجة، 2012، ص.09)، ولما نالت الثورة الجزائرية تعاطفا دوليا وعرضت القضية الجزائرية في محفل الأمم المتحدة وحركة عدم الانحياز، ازداد موقف كامو تجذرا وانحيازا إلى جانب وطنه الأم فرنسا ليصرّح بالقول -حسب عبارته الشهيرة- عقب حصوله على جائزة نوبل للآداب: "إنني أؤمن بالعدالة، ولكنني سأدافع عن أمي قبل أن أدافع عن العدالة" (حميد ناصر خوجة، 2012، ص. 135).

ويعتبر الشاعر سيناك على النقيض من الكاتب كامو الذي لم يعد يخفي وطنيته: "قضية العرب قضيتنا... أنا لم أعد أومن في سبيل مستقبل هذا البلد وعظمته إلا بثورة جذرية" (حميد ناصر خوجة، 2012، ص. 72)، إنه لم يمنعه ضميره الإنساني واعتقاده الجازم بالعيش في سلام من أن اجتثاث جذور الدخلاء وما ينعمون به من نعيم الأسياد لا يكون إلا بالنار كوسيلة كفاح مجدية، مصرحا بالقول: "أن الخروج من المأساة لابد من مواصلة الثورة وإراقة الدّم حتى يولد الوطن الجزائري الذي ينكره الوجود الاستعماري" (حميد ناصر خوجة، 2012، ص. 10).

وبالتالي يكون "كامو المنحدر من وسط استعماري قد حكم عليه سيناك بالعنصرية وهو يستحق الإدانة في ذلك فقد اعترف لمعلمه جان غروني (Jean Grenier) بأنه لا يمكنه العيش في الجزائر لوجود العرب فيها" (حميد ناصر خوجة، 2012، ص. 109).

وهكذا يتبين جليا أن العلاقة التي تجمع كامو بالجزائر هي علاقة أدبية صرفة -وذلك باعتبار أن كتبه كانت تستمد قوتها من الأرض الجزائرية-. حيث أن صاحب نوبل للآداب لم يدافع عن جزائر سياسية بشكل من الأشكال إلا في إطار الصحافة بما يمليه عليه ضميره الإنساني بعض الأحيان مخافة أن ينال الجزائري حريته ويطمس بذلك حلم مواطنيه المستوطنين وبلده فرنسا بالعيش في الجزائر الفرنسية.

خلاصة:

وفي الختام يتضح لنا من العرض السابق –في حدود مقالنا-، أن اهتمام فرنسا بالجزائر جاء رغبة في التوسع والاستيلاء على ثرواتها وخيراتها، والقضاء على هوية أهلها؛ وقد سار معظم أدبائها ومفكريها وباحثيها جنبا إلى جنب مع العسكر في ركاب الاحتلال وإدارته سعيا إلى دراسة هذه الأرض الإفريقية المشرقية والتعمق في تاريخها وحاضرها آنذاك .

ويبدو أن الحركة الأدبية والفكرية الفرنسية من بداية الاحتلال إلى نهايته عملت على تلميع سياسة فرنسا بالجزائر كالعمل الذي قام به الكاتب العسكري أوجين دوما في كتابه نخص بالذكر: "آداب وعادات الجزائر" والرحالة الرّسام الكاتب أوجين فرومنتان في كتابيه: "صيف في الصحراء" و"سنة في السهل" والأديب ألبير كامو في قصته "الضيف"، محددين إحداثيات تواجدهم في فضاء الجزائر الغريب عنهم، لرصد الصورة عنها وإرسالها إلى من تعذر عليه الارتماء في أحضانها من مواطنيهم، والتي نالت القبول والاستحسان منهم، كونها تصبّ في وعاء الفكر الأوروبي المتعصب في كشف الغرائبية إلى حد البدائية عن الآخر.

ولخدمة نوايا الاستعمار وزرع العداوة بين الجزائريين إضعافا لوحدتهم انكب الضابط دوما على دراسة خلايا المجتمع الجزائري غير مبال بالجزائريين، بل كان يدعو إلى تسليط شتى الأساليب والطرق انتقاصا وتعذيبا وتصفية جسدية في حقهم ؛ أما الجزائر فيريدها فرنسية غير مرتبطة بالأمة الإسلامية.

بينما أراد الكاتب فرومنتان هو الآخر مخاطبة قارئه الأوروبي عامة والفرنسي خاصة بأن الجزائر اليوم، أرض شرقية جميلة سهل قنصها لعجز أهلها على حمايتها، والذين خصّهم بصور ظاهرها الرضا عن أنماط سلوكاتهم المميزة لكل واحد منهم وباطنها التهكم والازدراء.

أما فيما يخص الأديب ألبير كامو، فإنه في هذه الأثناء قد ارتبط الأدب بالسياسة في الآداب الفرنسية ارتباطا خصيبا فكانت جمالية الأول لا تعفيه من التسرب إلى خطاب الثاني، ولا يخفى أن الصورة اختراع واختلاق والكاتب بالرغم من معاناته ومكانته الأدبية المرموقة فقد مثّل الجزائري في منجزه الأدبي الفرنسي متحاشيا فاعليته، بحيث أي قارئ يدرك دركات انحطاطه المتعمدة من ذات ناظرة غازية ترى فيه إنسانا بدائيا متحجر العقل لا يرغب في التحضر وهذا ينمّ عما يعانيه الكاتب من أزمات وجود في عصره وبيئته.

وعلى الجملة يمكن القول أنه ليس هنالك تمثيل سردي محايد وبريء ومتسامح مع الجزائري؛ والنتيجة المؤكدة التي أقرها دوما وأثبتها كامو وصرح بها فرومنتان بملء فيه: "يمكننا القول مع يقين أنه لا يوجد عرب في الجزائر هذه المدينة لم تكن على الأرجح عاصمتهم وحصنهم إلا عن طريق التخيل"(Eugène Fromentin, 1859, P.101)، وأن التاريخ الجزائري، هو تاريخ انقسامات مستمرة وتناحر دائم، جاء الاستعمار لاحتلال الجزائر والأخذ بيد أهلها فكانت صورهم الجماعية والفردية في المنجز الأدبي لهؤلاء الكتاب المجسدة لهذا الواقع تعبر عن نظرة ذاتية لواقع وهميّ تؤطره روح الاستعلاء والتعصب غير مبرأ من سياسة التمييز التي ينتهجها الغرب اتجاه العرب وغيرهم من الشعوب المبنية أساسا على النفعية المادية.

مراجع :

- أبو القاسم سعد الله، (1990). **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، ط.3، ج.1، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- أبو القاسم سعد الله، (1989). تاريخ الجزائر الثقافي، ج8، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- أحمد منور، (2007). الأدب الجزائري باللسان الفرنسي نشأته وتطوره وقضاياه، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر.
- أندري برنيان، أندري نوشي، إيف لاكوست، تر.: رابح ومنصف عاشور، (1984). الجزائر بين الماضي والحاضر، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر.
- بيير جوردا، تر.: مي عبد الكريم، علي بدر، (2000). الرحلة إلى الشرق رحلة الأدباء الفرنسيين إلى البلاد الإسلامية في القرن التاسع عشر، دمشق: الأهالي للطباعة.
- حسين محمد فهيم، (جويلية 1989). أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد 138.
- حفناوي بعلي، (2002). أثر الأدب الأمريكي في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية، وهران: دار الغرب.
- حفناوي بعلي، (ديسمبر 2004). صورة الجزائر في الكتابات الفرنسية: مواقف كولونيالية وأخرى ملتزمة، مجلة الآداب واللغات، جامعة الأغواط، عدد 03.
- حمدان بن عثمان خوجة، تق.: محمد العربي الزبيري، (2006). المرآة، الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.
- حميد ناصر خوجة، تر. محمد عبد الكريم أوزغلة، (2012). ألبير كامو-جان سيناك أو الابن المتمرد، الجزائر: دار القصبة للنشر.
- سعاد محمد خضر، (1967). الأدب الجزائري المعاصر، صيدا، لبنان: منشورات المكتبة العصرية.
- سليمان قطاية، (ديسمبر 1988). أوجين دوما: خيول الصحراء الكبرى مع تعليقات لأمير عبد القادر، مجلة عالم الفكر، الكويت، مجلد 19، عدد 04.
- الطاهر لبيب، (2008). صورة الآخر: العربي ناظرا ومنظورا إليه، ط.2، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- عبد الصمد زايد، (1988). مفهوم الزمن ودلالته في الرواية العربية المعاصرة، تونس: الدار العربية للكتاب.
- عيسى بريهمات، (1984). صورة الشرق في أدب فولتير المسرحي والقصصي، رسالة ماجستير (أدب مقارن)، جامعة السانية، الجزائر.
- عيسى عطاشي، (2006). صورة الجزائر في أدب الرحلات الفرنسي "صيف في الصحراء" لفرومنتان نموذجا، رسالة ماجيستير (أدب مقارن)، جامعة الجزائر، الجزائر.

- Albert camus, (1957). **L'exile et le royaume: L'hôte**, Paris: Ed. Gallimard.
- Daumas Eugène, Int. Abdelkader Djeghloul, (2012). **Mœurs et Coutumes de L'Algérie**, Algérie: Ed. ANEP.

- Eugène Fromentin, Pré. Anne Marie Christine, (1981). **Un Eté dans le Sahara**, Paris: Ed. Le Sycomore.
- Eugène Fromentin, (1859). **Une année dans le Sahel**, 2eme éd. Paris: Michel Lévy frères Libraires.
- Gastineau Benjamin, (1861). **Les Femmes et Les Mœurs de l'Algérie**, Paris: Collection Hetzl.
- Olivier Tod, (1996). **Albert Camus- Une vie**, Paris: Gallimard.

كيفية الاستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA :

بريغيث علي، (2020) **صورة الجزائري في الأدب الفرنسي الكولونيالي** ، مجلة أنسنة للبحوث و الدراسات، المجلد 11(العدد 2)، الجزائر : جامعة زيان عاشور الجلفة، ص.ص 90-103.